

الأمّة بين المنهج والتاريخ

المهندس عدنان الرفاعي

حينما نتحدّث عن المنهج ، فإننا نعني القرآن الكريم ، كنصّ مقدّسٍ محفوظٍ من الله تعالى .. ولا نعني قراءات البشر له عبر التاريخ ، ولا نعني قراءتنا نحن له ، ولا نعني كلّ الروايات (الأحاديث) التاريخية المنسوبة إلى الرسول ﷺ ، والتي يحسبها الكثيرون - جميعها - نصوصاً مقدّسة .. وهذا لا يعني أننا ننكرها جميعها ، بل قدر ذاته الذي لا نعني فيه أننا نفرّ بصحتها جميعها .. إنّ المقدّس هو النصّ الإلهي الحامل لكلّ القراءات السليمة حتى قيام الساعة ، بحيث يكون معياراً سلامة قراءة هذا المنهج ، هو النصّ المقدّس ذاته ..

إنّ النصّ القرآنيّ الذي نزل تبياناً لكلّ شيءٍ (وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) [النحل : ٩٨] ، يحمل - قبل كلّ شيءٍ - تبياناً لأحكامه ، ولا مدلالات كلماته ، ويحمل معياراً لمعرفة الحقّ والباطل حين الاختلاف في دلالات نصوصه وكلماته ، ويحمل معياراً لمعرفة السنّة الحقّ من الموضوع في الروايات التاريخية الموجودة بين أيدينا ، وإلّا لما كان تبياناً لكلّ شيءٍ ..

وحيثما نتحدّث عن التاريخ فإننا نعني ما بين أيدينا من روايات ، سواء الأحداث التاريخية ، أم قراءات البشر المختلفة لمنهج الله تعالى (القرآن الكريم) ، أم ما صحّ من هذه الروايات - بمعيار بعض الأشخاص في بعض الأجيال - ، وما لم يصحّ ..

والمنهج (القرآن الكريم) هو فوق التاريخ ، لأنّه لم يصلنا عبر التاريخ كرواية تاريخية .. إنّما وصلنا كنصّ مقدّسٍ محفوظٍ من الله تعالى ، عبر رسمٍ إعجازيٍّ فوق كلّ قواعد اللغة الوضعيّة ، في ذلك العصر ، وفي العصور التالية حتى قيام الساعة ، ودليل

ذلك أن رسمه فوق كل قواعد الإملاء المعروفة ، وأن هذا الرسم يحمل أسراراً إلهية كبيرة بدأت مقدّماتها تنكشف في بداية هذا القرن الهجري ، ودليل ذلك – أيضاً – أن صياغته فوق كل قواعد النحو التي تمّ تأطيرها حتى الآن ، وأن دلالات كلماته فوق ما تحمله قواميس اللغة العربية حتى الآن ..

والسنة الحق التي حملها إلينا رسول الله ﷺ ، هي أيضاً فوق التاريخ ، لأنها هي الأخرى لم يقتصر وصولها إلينا على الروايات التاريخية .. إن الأصل في وصولها إلينا هو أنها حياة تعبدية كاملة ، عاشتها الأجيال منذ عصر الرسول ﷺ حتى الآن .. فهي الصلاة ، وعدد الركعات المفروضة – على سبيل المثال – هي سنة فوق الروايات التاريخية ، وهي محفوظة كما أن القرآن الكريم محفوظ ، فالله تعالى يصحها بالمدكر ، ولكن متعلقة بالإنزال من الفعل (أنزل) وليس من الفعل (نزل) ..

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل : ٤٤]

والذكر اسم صفة من أسماء صفات القرآن الكريم ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) [فصلت : ١٤]

والله تعالى حفظ الذكر المترل من الفعل (نزل) ..

(إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر : ٩/٥١]

ولذلك نرى أن الأمة من أقصى السنة إلى أقصى الشيعة ، ليست مختلفة في القرآن الكريم ، وليست مختلفة في السنة التي توارثتها الأجيال عن رسول الله ﷺ ، حياة تعبدية من جيل إلى جيل ..

إن الخلاف بين السنة والشيعة ، وبين مذاهب الأمة – سواء عند السنة أم عند الشيعة – هو حول الروايات التاريخية المنسوبة إلى الرسول ﷺ ، حيث يعتد بكل مذهب (في العقيدة والفكر) أن رواياته نصوص مقدسة ، هي من الناحية النظرية – كما يعلن – مفسرة لكتاب الله تعالى ، بينما من الناحية العملية – كما نرى وكم

يروى التاريخ - هي عنده حجة على كتاب الله تعالى ، وإطاراً لتحجيم دلالاته ومعانيه ، في وادي العصبية المذهبية ..

وما يؤكد ما نقوله ، أن الخلافات المذهبية كفته للعبادات ، لم تكن في يوم من الأيام مثاراً فتنه واختلاف بين أفراد هذه الأمة ، بالحجم الذي تكون فيه الخلافات كخصوصيات مذهبية مثاراً فتنه واختلاف .. ومرد ذلك أن أحكام العبادات ، أتت الكثير منها حياةً تعبديةً تتوافق مع ظاهر دلالات كتاب الله تعالى ، ولذلك فالخلافات ليست شاسعةً ، وليست في الجوهر .. بينما الأفكار المذهبية والخصوصيات المتعلقة برجال التاريخ الذين تم تحويلهم مع الزمن إلى أصنام ، تختلف من مذهب إلى آخر ، تبعاً لاختلاف الروايات التاريخية ، التي يدعي كل مذهب أن رواياته فقط هي سنة رسول الله ﷺ ..

إن المشكلة في التاريخ (روايات وأحداث) أنه حينما كتب لم يكتب بتجرد عن العصبية المذهبية ، وحينما فُسر - ويُفسر - فُسر - ويُفسر - بإغراق في هذه العصبية .. هذا كله أدى - ويؤدي - إلى الغرق في الفرق في الفرق ، وفي الجدل السلبي ، وفي التعصب الأعمى للأمر الهابط على حساب شمولية المنهج ، مما ينتج عن ذلك مزيد من تشرذم هذه الأمة ..

فالحقائق التاريخية (المستقلة عن المنهج) تؤخذ بالمقاربة ، ولا يمكن الوصول إليها كحقيقة إلا بإعادة عجلة الزمن إلى الوراء ..

والقول بأن التاريخ عند العرب خرج من رحم الحديث ، هو قول صحيح في معيار التدرج التاريخي لكتابة التاريخ .. ولكن في النهاية لا يمكن فصل الحديث عن التاريخ ، ففي الوقت ذاته نرى نرى أن جميع الأدوات والمقدمات المستخدمة في جمع الحديث هي تاريخية بحتة ، ولا تخلو من الأخطاء ذاتها التي ترتكب في تسجيل أحداث التاريخ ..

أليست الروايات التي لم يخترها مخرجو الصحاح (من بين جملة الروايات التي كانت بين أيديهم) ، هي روايات تاريخية ، فكيف تكون الروايات التي اختاروها (من

هذه الجملة (روايات فوق التاريخ؟! .. ومن الذي أعطاهم العصمة ع من الخطأ ،
وجعلهم حجةً على المقدّس ؟ ..)

ألم يختار البخاري بضعة آلاف من الأحاديث (في صحيحه) ، من بين حوالي (٠٠٠٠٠٦) حديث كانت بين يديه ؟ .. فهل موافقة الرواية لمعيار البخاري ، ينقلها من التاريخ إلى المقدّس ؟ ! .. وهل كان المنهج (الذي تحمله الروايات المختارة) ضائعاً بين جملة هذه الروايات إلى أن أتى البخاري وغيره ، فأخرجوا هذا المنهج إلى النور؟! ..

.. لماذا لا يكون معيار صحة الرواية التاريخية المنسوبة إلى رسول الله ﷺ هو موافقتها لكتاب الله تعالى ؟ ..

إنّ للأجيال الأولى فضلاً على هذه الأمة ، حتى قيام الساعة ، وهو أنّها حولت العبادات (السنة الحقة) إلى واقع حياة مُتَحَقِّقٍ في التاريخ .. ولكن هذا لا يعني أنّ ما بين أيدينا من تاريخ للأجيال الأولى - بجزئياته - نصّ مقدّس ..

أليس الصحابة الذين حاربوا الرسول ﷺ في بداية الدعوة ، هم ذاهم الذين آمنوا به ونصروه ، وحملوا لواء الإسلام إلى الناس ، وهم ذاهم الذين عادوا واقتتلوا فيما بعد ؟ .. إنّ الفكر السليم المُستنبط من المنهج (القرآن الكريم) ، هو الذي يصنع الأمة ، ويحافظ على هويتها ، لا التاريخ ، ولا الرجال كرجالٍ بمعزلٍ عن هذا الفكر .. وإنّ الذهاب في التاريخ أكثر مما يجب ، وعلى حساب المنهج ، يُخرجنا من التاريخ كأمةٍ فاعلة حضارياً ..

إنّ نقد التاريخ (برواياته وأحداثه) ، إذا كان وفق معيار المنهج (القرآن الكريم) ، لا يعني - كما يتوهم الجاهلون - هجوماً على الدين .. بل هو غربلة للتاريخ برواياته وأحداثه ، لإخراج الشوائب التاريخية التي حُسبت على المنهج .. ومن يتصوره هجوماً على الدين ، إنّما يعتقد - سواء علم بذلك أم لم يعلم - أنّ التاريخ هو عين المنهج ..

إنّ الأمة لا تنهض بالتاريخ ، ولكن تنهض بالفكر .. ومن الأدلّة على ذلك أنّ العرب قبل الإسلام لم يكن لهم تاريخٌ يعطيهم حيثيات النهضة الحضاريّة ، ولكن بالفكر السليم المستمدّ من المنهج (القرآن الكريم) نهضوا .. وحين غرقوا في تقديس التاريخ ، واعتبروه منهجاً ، ابتداءً من عصر جمع الحديث ، تراجعوا حضاريّاً ، وما زالوا حتى الآن .. وسيبقون متراجعين حتى يخرجوا من أودية تقديس التاريخ كبديلٍ عن المنهج ، أو كمكملٍ للمنهج ..

.. التاريخ ينقل لنا صورة الفكر في الماضي ، كما رآها المؤرّخون ، وينقل لنا قراءة الأجيال السابقة للمنهج ، وحيثيات إدراكهم وتفاعلهم مع هذا المنهج .. بينما يتشكّل الفكر السليم مع النبض التاريخي ، عبر استنباط البشر للسُنن العاملة في الانبعاث الحضاري ، من خلال تراكم إدراكهم السليم للمنهج (القرآن الكريم) ، ومن خلال دراستهم للتاريخ دراسة سليمة مجردة ، بهدف اكتشاف قوانين الحركة التاريخيّة ..

.. فاكشفنا قوانين الحركة التاريخيّة ، واستثمارها لرسم الطريق السليم الذي يسير عليه مركبُ الأمة ، يضعنا في مقدّمة التاريخ كأمة فاعلة ، تفعل ما تقول ، وتقول ما تفعل ، ويُخرجنا من سجن التاريخ كتقليدٍ أعمى للقال والقليل ..

وكلامنا هذا لا يعني - أبداً - أنّ التاريخ كان دائماً في الخندق المعادي للمنهج ..

أبدأ .. وفي الوقت ذاته لم يكن التاريخ (برواياته وأحداثه حتى تلك التي تُقدّم كمنهج) دائماً في خندق المنهج ..

ومن الخلط بين التاريخ والمنهج ، ما يجعل من بعض أحداث التاريخ (الذي يُقدّم كمنهج) إطاراً لآليات التفاعل في إطار الوجود الإنساني حضاريّاً وإيمانيّاً وإنسانيّاً ، ويجعل من بعض جوانب المنهج مجرد قصصٍ تاريخيّة .. من هذا الخلط ما نراه في كتابة تاريخنا (كروايات منسوبة إلى رسول الله ﷺ ، وكأحداث) بالية فكريّة تدعوا - بشكلٍ مباشر أو لا مباشر - إلى أنّ سنن الانبعاث الحضاري متوقّفة على الجانب الإيماني .. بينما المنهج (القرآن الكريم) يقول غير ذلك ..

(كَلَّا نَمُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) [الإسراء : ٥٢] ..
 إنَّ الأسبابَ يضعها الله تعالى بين أيدي المؤمنين والكافرين على حدِّ سواء ، وعطاء ربِّ العالمين ليس محظوراً على أحد ، في الحياة الدنيا .. وفي ذلك بيانٌ إلهيٌّ أنَّه سبحانه لا يبعث الحزاري - من الناحية الماديَّة - تتعلَّق بالتفاعل مع قوانين الكون الماديَّة .. هذا ما يؤكِّده المنهج ، وهذا ما لا نراه في التاريخ ، بالشكل الذي يجب أن نراه فيه .. هذه الحقيقة نراها - مرَّة أخرى - في المنهج (القرآن الكريم) ، من خلال وصف الله تعالى للحوار بين ذي القرنين والمستضعفين ..

(قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوحٌ وَمَأْجُوحٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُكَ خَرَجًا عَلَيَّ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٤٩) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (٥٩) أَتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ) [الكهف : ٤٩ - ٦٩] ..

إننا نرى أنَّ ذا القرنين حينما أراد مساعدة المستضعفين ، لم يقل لهم يكفيننا الدعاء على المفسدين في الأرض ، إنما قال .. (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ...) وقال .. (أَتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ ...) .. هذا الناموس الكوني الذي يصوره هذا النصُّ القرآنيُّ ، من قصَّة ذي القرنين في كتاب الله تعالى ، هو ما لم نأخذ به - عبر التاريخ - كما يُطلب منا كأمَّةٍ تحمُّل منهج الله تعالى ، وتكَلَّفُ بإيصاله إلى الناس ..

وهذا الناموس الكوني نراه - مرَّة أخرى - في منهج الله تعالى ، عبر الآية التالية ..
 (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحديد : ٥٢] ..

إننا نرى أن العبارة القرآنية (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) تتوسّط ط هذه الآية الكريمة ، بين العبارة التي تصوّر لنا إرسال الله تعالى رسله على يهيم الس ملام بالبينات ، وإنزال الكتاب والميزان معهم ، كي يقوم الناس بالقسط ، وبين العبارة التي تصوّر علم الله تعالى لمن ينصره ورسله بالغيب .. وفي هذا بيان إلهي صريح على أن منهج الحق الذي يحمله الرسل عليهم السلام ، وإقامة الحق وفق ميزان هذا المنهج ، يحتاج إلى امتلاك قوّة الحديد ..

ومن الخلط بين التاريخ والمنهج ، والذي أدى إلى جعل بعض جوانب التاريخ منهجاً من أساسيات الفكر الذي انصاعت له الأمة عبر التاريخ ، مفهوماً مسألة الشورى ..

المنهج صور هذه المسألة في ست كلمات ، وذلك في قوله تعالى .. (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى : ٨٣] ، وفي قوله تعالى .. (وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ) [آل عمران : ٩٥١] .. وعدم تحديد المنهج (القرآن الكريم) لآلية محددة في مسألة الشورى ، هو لحكمة إلهية .. فالتطور الحضاري للأمم يفرز - مع الزمن - تطوراً في آليات الشورى ، ولذلك تبقى هذه الكلمات الست معياراً لكل آلية من هذه الآليات .. فبمق دارم ما تحقّق آلية الشورى - في أيّ جيل من الأجيال - الصدق والتراحم والعدالة والأمانة والطمأنينة والحق في وصول الحاكم إلى الحكم ، وفي تفاعله مع الرعية ، بمق دارم ما تكون هذه الآلية أقرب إلى مراد الله تعالى في هذه الكلمات الست ..

إن مسألة الشورى كما حدثت في تاريخ أمتنا ، ابتداءً من عصر الخلفاء الراشدين ، هي قراءة رجال عصر الخلفاء الراشدين لهذه الكلمات الست ، من منظار الواقع التاريخي والحضاري لذلك الجيل .. هذه القراءة نتج عنها آلية محددة للوصول إلى قيادة الأمة ، ولتفاعل الخليفة مع أفراد أمته ..

هذه الآلية لم تصمد طويلاً حتى تحوّلت إلى آلية أخرى في العصر الأمويّ ، لا علاقة لها بمنهج الله تعالى لا من قريب ولا من بعيد .. وآلية الشورى في العصر العباسي ، ليست أفضل حالاً مما سبقها ..

هذه الآليات التي مارستها الأمة في مسألة الشورى - سواء في الوصول إلى قيادة الأمة ، أم في تفاعل قائد الأمة مع أمته - هي دون استثناء ، آليات تاريخية .. وإنّ تبني أيّ آلية من هذه الآليات ، كمنهج للشورى يفرض على الأمة حتى قيام الساعة ، هو - في الحقيقة - إلغاءً لمنهج الله تعالى الخاصّ بهذه المسألة وتقديم للتاريخ كبديل عنه .. إنّ هذه الآليات التاريخية لمسألة الشورى ، لم تكن مُقنعة لبعض أفراد الجيل الأوّل ذاتهم .. وما معركة الجمل ومعركة صفين وما تبعهما ، إلا دليل على ذلك .. فقد حدثت هذه المعارك كنتيجة طبيعية لهذه الآليات ، وكنتيجة طبيعية لعدم انصياع بعض رجال ذلك الجيل للمنهج ذاته .. فكيف إذن تكون هذه الآليات التاريخية لمسألة الشورى التي يعينها الله تعالى في منهجة لكلّ زمان ومكان ، كما يطرح الكثيرون ممن يحسبون التاريخ منهجاً ..

إنّ رسول الله ﷺ لم يحدّد رجلاً بعينه لخلافته في قيادة هذه الأمة ، فلم يُشر إلى أبي بكر الصديق كما هو في تاريخ أهل السنة ، ولم يحدّد عليّاً كما تذهب الشيعة .. كلّ هذه الروايات التاريخية كتبت وشرحت في دهاليز العصبية المذهبية ، بهدف خدمة الأفكار المذهبية ، وإعطائها لونا من القدسية .. فلو حدّد الرسول ﷺ رجلاً محدداً لخلافته ، لكان ذلك سنةً يجب اتباعها ، ولتناقض ذلك مع المنهج ذاته ، فقله تعالى (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) يُسْقِطُ كُلَّ هذه الروايات من أساسها ..

ولذلك فإنّ اعتبار التاريخ بأحداثه وآلياته المختلفة (في أيّ جيل كان) القراءات الوحيدة للمنهج ، والصالحة لكلّ زمان ومكان ، هو في الحقيقة مصدرة للمنهج ، ومحاولة لخطفه من كلّ زمان ومكان ، لتغييبه وتقديم التاريخ كبديل عنه ..

وعملية خطف المنهج وتغييبه وتقديم التاريخ كبديل عنه ، جعلنا - عبر التاريخ -
أمة نائمة ، لا تستفيد حتى من تجاربها التاريخية ، ولا تتلمس تاريخها بتجرّد ، ولا تقرأه
قراءة سليمة .

إنّ المعارك الداخليّة المستمرّة - بأشكالها المختلفة - بين مذاهب هذه الأمة
وعلمائها وأمرائها وأفرادها ، والتي لا تتوقف إلّا في بعض معارك الأمة الخارجيّة ،
حيث تعود المعارك الداخليّة فور انتهاء المعركة الخارجيّة .. هذه المعارك (الداخليّة)
هي من النقاط الثابتة التي يمرّ منها منحنى تاريخ أمتنا بشكل دوريّ ، يكاد يكون قانوناً
خاصّاً بهذه الأمة .. فابتداءً بمعركة الجمل ، نرى حقيقةً واحدةً تظهر في كلِّ زمّانٍ
ومكانٍ بأفئدة مختلفة ..

ولو عدنا إلى التاريخ ذاته ، لرأينا أنّ هذا القانون التاريخي الذي يميّز أمتنا بشكلٍ
خاصّ ، وُلد من رحم الفكر الذي يجعل التاريخ بديلاً عن المنهج .. فكلُّ مذهبٍ وكلُّ
شخصٍ يعتبر نفسه الخليفة المكلف من الله تعالى (عبر نصوصٍ مُفصّلة ومنسوبة إلى
الرسول ﷺ) لقيادة هذه الأمة ، وبالتالي لمحاربة من يخالفه ، لأنّ من يخالفه يُعدّ -
من وجهة نظره - مخالفاً للجماعة المعتنقة لمذهبه ، وبالتالي مخالفاً لله تعالى ، وبالتالي
مرتدّاً ، وبالتالي يجب قتله ..

وكلُّ له نصوصه التاريخيّة التي يعتبرها نصوصاً مقدّسةً ، يُقنع أتباعه - من خلالها
- بضرورة الاختلاف مع الآخرين ، من أجل الخلاص إلى الله تعالى ، عبر تنفيذ مذمّة
تُمليه هذه النصوص ..

وهكذا فإنّ وضع التاريخ بديلاً عن المنهج ، أفرز لكلِّ مذهبٍ فكرٍيَّ نصوصاً
تاريخيّةً ، وأقوالاً ، وفلسفةً ، ورجالاً يجعلون - من الناحية العملية لا النظرية - من
اختلاف المذهب مع مذاهب الأمة الأخرى ، أكبر من اختلافه - ضمن إطار أمة -
مع الأمم الأخرى ، ومع الأديان الأخرى .. ممّا أدّى إلى أن تكون الصراعات الداخليّة
بين مذاهب هذه الأمة الفكرية قانوناً تاريخياً ، سيبقى حتى نعود إلى المنهج الحقّ ،
فنعيده بدلاً عن التاريخ ..

ومن الخلط بين المنهج والتاريخ ، والذي يجعل بعض جوانب المنهج تاريخاً ، هو فهم دلالات بعض النصوص القرآنية وإدراكها ، على أنها خاصة بأحداث تاريخية محددة .. فهذا الفهم يؤدي إلى عدم رؤية الأحكام المجردة عن التاريخ ، التي تحملها هذه النصوص .. أي تحويل بعض جوانب المنهج إلى تاريخ ، تحت أسماء مختلفة ، كالناسخ والمنسوخ ، وكتحجيم دلالات بعض النصوص القرآنية في إطار أساليب التزوير ، وفي إطار إدراك الأجيال الأولى لدلالات كتاب الله تعالى ..

وبعض الروايات التاريخية التي حُسبت على المنهج ، كنصوص مقدسة منسوبة إلى الرسول ﷺ ، ساهمت كثيراً في تمزق فكر هذه الأمة .. فكل مذهب فكري وعقيد مدي تصور له هذه الروايات (التي تم نسيجها على منوال هذا المذهب) أنه هو - وفق ط هو - الفرقة الناجية ، من بين البضع والسبعين فرقة التي ستنقس م وفقه ما الأمة ، وبالتالي ما تبقى من الفرق (المذاهب الفكرية) الأخرى ، هي فرق هالكة ، وبالجملة كافرة ، وبالتالي لا تنتمي إلى الدين ..

بينما لو كان المنهج هو المعيار للروايات التاريخية ، لما حصل هذا التمزق والتشردم الفكري .. ففي منهج الله تعالى (القرآن الكريم) كل إنسان مسلماً كان أم من أهمل الكتاب أم من أي أمة كان ، هو - يوم القيامة - رهن عمله ..

(لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٣٢١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا) [النساء : ٣٢١ - ٤٢١] ..

ففي التاريخ (روايات وأحداث) الكثير من المذاهب والطوائف داخل المدن الواحد ، والمتبعة لكتاب واحد هو كتاب الله تعالى ، يكفر بعضها بعضاً .. بينما ما في المنهج (القرآن الكريم) نرى البشر حتى في الأديان الأخرى ، كرامتهم الإنسانية محفوظة ، ما داموا مسلمين غير معتدين .. ولذلك لو طبق المنهج (القرآن الكريم) كما

يُريد الله تعالى ، كنظام حياة في أي مجتمع ، تطبيقاً سليماً ، مجرداً عن خطف دلالاته من قبل بعض الروايات التاريخية ، لرأينا حتى غير المسلمين يدافعون عن تطبيقه ، لأذنه يحمي كرامتهم ، ويصون حرمتهم ..

إنّ المعادلة الفاعلة سلبياً (بطرفيها) في حركتنا الحضارية والإنسانية عبر التاريخ ، هي مساواة بين طرفين .. طرفها الأول جعل التاريخ منهجاً ، وطرفها الثاني جمع مل المنهج تاريخاً .. فما بين الطرفين السلبيين لهذه المعادلة ، أبحرت معظم المراكب المذهبية (فكرياً) ، التي أدت إلى تمزق الأمة على مدار قرون عديدة ..

وهذه المعادلة السلبية تولدت منها معادلة ليست أقلّ سلبيةً بطرفيها ما .. وهي المساواة بين السنة الحق لرسول الله ﷺ ، وبين روايات الأحاديث التاريخية .. فاعتبر مار السنة ضمن إطار الروايات التاريخية ، أم اعتبار كل الروايات التاريخية سنة .. كل ذلك غرق في مستنقع التاريخ ، وابتعاد عن المنهج .. فالمنهج الحق في تدبر هذه الروايات هو وضعها في ميزان القرآن الكريم ..

إنّ النظر إلى التاريخ (برواياته وأحداثه) على أنه من المنهج ، يجعله مالا نرى السنن العاملة فيه ، ولا نرى شيئاً من قوانينه التي تؤدي إلى الانبعاث الحضاري .. وحين ذلك لا ينتج لدينا إلا مزيد من تقديس التاريخ ورجالاته تقديساً أعمى ، ولا ينتج إلا مزيد من التفهقر الفكري ، ومزيد من التراجع الإنساني في ما نملكه من حضارة ..

من هنا نقول .. إن معرفة الحد الفاصل بين المنهج والتاريخ ، هي ضرورة ملحة لفهم المنهج فهماً سليماً كما يريد مُترب هذا المنهج سبحانه وتعالى ، وضرورة ملحة لفهم التاريخ فهماً سليماً مجرداً ، بغية اكتشاف قوانين الحركة التاريخية فيه ، وبغية معرفة النقاط السلبية والإيجابية التي مرّ منها منحني هذا التاريخ ، كي نرى بصيرة أوضح السنن العاملة فيه ، فنوظف حركتنا الإنسانية والحضارية في الحاضر والمستقبل التوظيف الأمثل ، للعمل في إنشاء دعائم النهضة الحضارية التي ننتظرها لهذه الأمة منذ زمن طويل ..

ومن هنا نقول .. إنَّ المنهج (القرآن الكريم) ، والسنةَ العاملةَ في التاريخ ،
والعقلَ والمنطقَ .. كلُّ ذلك يدعونا للعمل من أجل وحدة هذه الأمة ، وحدةً فكريَّةً
واقتصاديَّةً وسياسيَّةً ، ولتجاوز الخلافات بين أبناء هذه الأمة ، وبين مذاهبها ،
وطوائفها .. تلك الخلافات التي لا علاقة لها بالمنهج ، بل التي تخالف المنهج ، والتي
يبين لنا التاريخ أنَّها سبب ما نحن فيه ، على كلِّ الصعد .. فإن لم نفعل ذلك فلن يغفرَ
لنا مُترلُّ المنهج ، ولن يرحمنا التاريخ ، وسُنْخِرِج هذه الأمة التي ننتمي إليها من ساحة
التاريخ ..

والله تعالى وليُّ التوفيق

المهندس عدنان الرفاعي